الشعر *

في صدر الإسلام وعهد بني أمية

بقلم أحمد حسن الزيات

ظهر الاسلام وقد تحكم في حياة العرب جاهلية قاسية وعقلية جافية وعصبية مفرقة ، فكان الشعر مظهر هذه الصفات وباعثها ؛ فلما أعلن الرسول الحرب على هذه الأخلاق تمهيداً لألفة القلوب ووحدة العرب ، كان من الطبيعي أن ينقض رأسه إليه ، وألا يشجع الناس عليه ، ففي القرآن : « والشعراء يتبعهم الغاوون . وما علمناه الشعر وما ينبغي له » ، وفي الحديث : « لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً حتى يريه خير له من أن يمتلئ فمه شعراً » . فازور جانب المسلمين عن قرض الشعر وروايته ، على علمهم بأن الدين لم يكرهه على إطلاقه ، وإنما كره منه ذلك النوع الذي يمزق الشمل ويثير دفائن القلوب . ثم شغل العرب جميعاً بالدعوة العظمى ، فمن مؤيد ومن معارض ، واشتدت الخصومة بين الرسول وبين قريش ، فجردوا عليه الألسنة والألسنة ، ولكن شعراء العرب وقفوا موقف الحياد والتربص ينتظرون نتيجة المعركة بين التوحيد والوثنية ، وبين الديمقراطية والأرستقراطية ، وبين محمد وقريش . فلم يغامر في الخصومة إلا الشعراء القرشيون وقد كانوا قلالاً قبل الاسلام لشواغل الحضارة والتجارة ، فصاروا كثاراً بعده لدواعي النزاع والمعارضة . بدأ هذه الحملة منهم عبد الله بن الزبعرى وعمرو بن العاص وأبو سفيان ، فآذوا الرسول وأتباعه بقوارص الهجاء ، فهاج ذلك من شاعرية المسلمين وودّوا لو يأذن لهم الرسول بمساجلتهم ، فما هو إلا أن قال لهم : « ماذا يمنع الذين نصروا الله ورسوله بأسلحتهم أن ينصروه بألسنتهم ؟ » حتى صمد للقرشيين نفر من الصحابة ، فيهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، وشبوها حرباً كلامية جاهلية لم يهاجم المهاجمون فيها بفضائل الوثنية ، ولم يدافع المدافعون بفضائل الاسلام ، حتى نقول إن الشعر قد خطا في مذاهب الفن خطوة جديدة ، بل كانوا يتهاجون على النمط المعروف من الفخر بالأنساب والتبجح بالسؤدد ؛ يدل على ذلك قول الرسول لحسان : « اذهب إلى أبي بكر فهو أعلم بمثالب القوم » ، وقوله : « كيف تهجو قريشاً وأنا منها ؟ » فقال : أسلك كما أسل الشعرة من العجين

فليس من شك في أن الشعر ظل على عهد الرسول جاهلياً . وخضعت قريش وسائر العرب للدين الجديد بعد لأي ، فخرست الألسنة اللاذعة ، وفر الشعر الجاهلي ثانية إلى البادية ، وانصرف المسلمون إلى حفظ القرآن ورواية الحديث وجهاد الشرك ، فخفتَ صوت الشعر لقلة الدواعي إليه ، فما كان يظهر إلا الحين بعد الحين في صادق المدح والرثاء ؛ وتساهل الرسول في سماعه حتى أثاب عليه ، وحتى قال فيه : « إن من الشعر لحكمة »

تلك كانت حالة الشعر في عهد النبوة ، وأما حاله بعدها فأقل شأناً وأحط مكانة لذهاب المعارضة ولشدة الخلفاء في تأديب الشعراء ، وانصراف هم العرب إلى الفتوح ؛ ولكن الدين قد بدأ يفعل في النفوس ، ومظاهر الحضارة قد أخذت تؤثر في الأذهان ، فظهر أثر ذلك ضئيلاً في شعر المخضرمين ككعب بن زهير والحطيئة وممن بن أوس والنابغة الجعدي ، ولكنه أثر لا يتعدى بعض الألفاظ الاسلامية كالمعروف والمنكر والصلاة والزكاة والجنة والنار والمهاجرين والأنصار . ولذلك نرى من المبالغة جعل المخضرمين طبقة ممتازة ، فان شعرهم استمرار للمذهب الجاهلي لم يتأثر بالاسلام إلا تأثراً عرضياً كضعف الأسلوب في شعر حسان ، أو قلة الانتاج في قريحة لبيد ، أو كثرته في الحطيئة والنابغة الجعدي مثلا ؛ والأشبه بالحق أن نقرر ما أشرنا إليه من قبل ، وهو أن الشعر العربي ظل في الجاهلية والاسلام واحداً في مظهره وجوهره ونوعه حتى أواخر عهد بني أمية ؛ والتأثير الذي ناله من الموالي والسياسة والحضارة والدين لم يعطفه إلى طرق جديدة ، وإنما وسع في معانيه ومناحيه ، فقوى بعض أغراضه كالهجاء ، وميز بعضاً آخر كالنزل . وهل يمكن التجديد في الشعر وجل الشعراء إنما يأتون من البادية ، والخلفاء يتعصبون للبادية ، والرواة والأدباء واللغويون يطلبون اللغة والشعر في البادية ؛ والعرب بطبيعتهم يميلون إلى التقليد ويجلون القديم

* من الطبعة الجديدة لكتاب تاريخ الأدب العربي الذي صدر حديثاً

المأثور من سؤدد وخلق وأدب ؟ فليس من سبيلنا أن نتكلف البحث العقيم فى القرن الأول عن مذهب شعرى جديد يصح أن يكون أساساً لأدب عربى جديد ، فان مذهب عمر بن أبى ربيعة فى الغزل لا يختلف عن مذهب امرئ القيس إلا فى المعانى الحضرية ؛ ومذهب جرير والفرزدق فى الهجاء لا يختلف عن مذهب الحطيئة والشماخ إلا فى المعانى السياسية ، فلنقصر الجهد على تحليل نهضة الشعر فى العراق والحجاز على عهد بنى أمية وبيان خطرها وأثرها فى الانتاج العقلى للعرب

* * *

كانت القحطانية والعدنانية ، والعلوية والبكرية ، والهاشمية والأموية ، واليمنية والشعوبية ، تضطرم فى نفوس المسلمين اضطرام البركان قبيل أن يثور ، ولكنها كانت تضعف حيناً وتشتد حيناً تبعاً لسياسة القائم بالأمر ونظام حكمه ؛ فالقبائل كانت تنزل منازلها فى البلاد على هذه الفكرة ، والبصرة والكوفة تخططان على هذه الفكرة ، والخلاف ينجم فى فارس والشام والعراق والأندلس من هذه الفكرة ، وكلها تدور على الزعامة والامامة ؛ فمن كان سيداً فى الجاهلية يريد أن يكون سيداً فى الاسلام ، كأن العرب لم يفهموا من الدين الجديد إلا أنه طريق إلى السلطان وسبيل إلى الغلبة والثروة والحكم ليس غير . ولعلك تذكر أن بعضاً من شيوخ القبائل كقيس بن عاصم والأحنف بن قيس كانوا يعرضون على الرسول أن يدخلوا فى دين الله لا على أنه الدين الحق ، بل ليكون لهم الأمر من بعده

ظلت هذه الروح العصبية مكبوتة فى عهد الشيخين لأخذهما الأمور بالحزم والعدل ، ولانصراف العرب إلى الغنم من طريق الجهاد والفتح ، فلما ولى الأمر عثمان وهنت اليد المصرفة فسددتها يد أخرى ، وتشتت الرأى فلم يصدر عن الخليفة وحده ، وحكم آله الناس بعصبيتهم الأموية لا بقوميتهم العربية ؛ وكان المسلمون يومئذ قد أفاءت عليهم الفتوح والغنائم بالثراء إلى حد البطر ، فاستيقظت الفتنة وقامت الثورة وانتهت بمقتل عثمان ، وتجددت الخصومة على أثر ذلك بين على ومعاوية ، وقتل الامام فتحرج الأمر وانشقت العصا ، وانصرف العرب إلى جهاد العدو عن جهاد أنفسهم باللسان والسيف ، وتفرقوا أحزاباً وشيعاً بعضها للدين وبعضها للدنيا . ففى الشام حزب يشايع بنى أمية ، يريض لهم الأمر ، ويمكنهم فى الملك ؛ وفى الحجاز حزب يناصر ابن الزبير ، يؤيده فى دعواه وينصره فى دعوته ؛ وفى العراق حزب يشايع أهل البيت ويطلب لهم بحقهم فى الخلافة ؛ وهنالك حزب ديمقراطى ينكر الأحزاب ويكفر الزعماء ويقول بالشورى فى الخلافة . وفى هذه الأحزاب الأربعة توزعت أهواء المسلمين وآراؤهم إلا طائفة قليلة لزمت الحياد وأرجأت الحكم بين المختلفين إلى قضاء الله يوم الدين ، وهم المرجئة ؛ واتصلت بين الأحزاب الخصومة ، وأعنف فيها الخصوم ، ولكن معاوية بعد أن تم له الأمر كان يصانع معارضيه بالدهاء والعطاء والاغضاء والحزم حتى استوثق له الأمر طيلة حياته إلا من جهة الخوارج ، فلما مات أفاق خصومه من خدر سياسته فزعزعوا عرشه ، حتى إذا وهى أدركه مروان وبنوه فسندوه واقتعدوه . وفى زمن عبد الملك اشتدت المعارضة واستعرت الحروب ، وكثر المطالبون بالخلافة ، وانبسط سلطان العرب ، وزخرت موارد الفىء ، واكتمل شباب الجيل الذى نشأ فى الاسلام واغتذى بثمر الفتوح واستمتع بجمال الحضارة واختلط بأنماط شتى من الناس وساهم بيده ولسانه فى هذه الفتن ، فبلغ الأدب العربى غاية ماقدر له أن يبلغ . فهل يمكن أن يظل الشعر بنجوة عن هذه الحياة الصاخبة ، والعصبية الثائرة ، والأحزاب المتحاربة ، والأهواء المتضاربة ، والشعر العربى رديف الخصومة والجدل ، تبعثه الحزبية ويقويه الهراش وتوحيه شياطين الفرقة ؟ الواقع أنه كان وقود هذه الفتن ولسان هذه الأحزاب ، يصطنعونه كما نصطنع نحن الصحف اليوم ، فيناضل عن زعمائه ، ويدافع عن آرائهم ، ويصطبغ بصبغة العقيدة التى يدعو اليها وينافح عنها . وإذا علمت أن العرب جميعاً ساهموا فى هذه الخصومات ، وأن أكثرهم يقول الشعر وخصوصاً فى هذه الأزمات ، وأن الأمويين استمالوا بالمال هوى الشعراء ، وأوقدوا بينهم نار التنافس والهجاء ، وأن الشعر أصبح صناعة متميزة يعيش عليها بعض الناس ، أدركت سبب وفرة الشعر وكثرة الشعراء فى عصر عبد الملك ، إذ بلغ عدد الفحول المائة . وليس من شك فى أن الشعر وإن حافظ على طريقته وطبيعته قد تأثر بهذه الحياة الجديدة تأثراً ظاهراً فى معانيه وأغراضه ؛ ولكن هذه الحياة لم تكن كلها نزاعاً سياسياً وجدالاً دينياً حتى يقف تأثره عند هذا الحد ، وإنما كان لها مظاهر أخرى يحسن

أن نشير إليها قبل أن ندل على آثارها فى الشعر

***

كان من الطبيعى أن تختلف مظاهر هذه الحياة فى العواصم العربية لاختلاف الأحوال السياسية والاجتماعية فيها. فالعراق كان منذ القدم منتجع الخواطر العربية لخصبه وغنائه، ووفرة ظله ومائه؛ وقد لاذ العرب قبل الاسلام بأطرافه وأريافه واللسان واليد فيه للفرس، فأنشأوا إمارة المناذرة؛ فلما فتحوه فى عهد عمر نزحوا إليه وأنشأوا على حدود البادية البصرة والكوفة. وكان فى العراق ميراث وَفْرٌ من العلم والأدب والدين خلفته الأمم البائدة، ولم يؤت العراق ما أوتيت مصر من قوة الهضم والتمثيل حتى يحيل سكانه إلى جنسية واحدة وعقلية واحدة، فانطبعت الأهواء فيه على الفرقة، والنفوس على التنافر؛ وأتى إليه العرب بالعصبية اليمنية والنزارية، ووقعت فيه الأحداث الاسلامية الجُـلّى كوقعة الجمل ومصرع الأئمة والقادة، وما نجم عن ذلك من قيام الشيعة والخوارج، واشتداد المعارضة لبنى أمية، واستحكام الخلاف بين البصريين والكوفيين فى السياسة والدين والعلم، فكانت البصرة عثمانية، والكوفة بعد استقرار الامام بها علوية، والجزيرة الفراتية إما نصرانية وإما خارجية، لأنها مسكن ربيعة، وهم كما قال الأصمعى رأس كل فتنة؛ ومن ربيعة بنو تغلب الذين قال فيهم الامام على: « يا خنازير العرب والله لئن صار هذا الأمر إلىّ لأضعن عليكم الجزية ». فكان الشعر العراق صورة لهذه الحياة الثائرة المتنافرة؛ فهو قوى عنيف يكثر فيه الهجاء والفخر، وتتلون فيه العصبية القَبَلِيَّة ألواناً شتى من التحزب للمكان والعقيدة والجنس، وتتغلب فيه النزعات الجاهلية على التعاليم الاسلامية، وتغذيه نفحات بدوية وصِلات أموية، فيزدهر وينتشر حتى يشغل كل لسان ويحتل كل مكان ويعبر عن كل مبدأ

والحجاز منبع الاسلام كان أشبه بينابيع النهر: يفيض منه الماء الصافى فى سكون ورفق، حتى إذا بعد مجراه اعترضته الشلالات وتقسمته التيارات فتكدر نميره واشتد هديره، وتوزعته الجداول والأقنية، فبعضه فى سباخ الأرض، وبعضه فى الرياض، فروى بعضاً وأغرق بعضاً. انتقلت منه الخلافة والمعارضة والدم إلى العراق والشام، وبقى هو كما كان وكما هو الآن يقبل المال والمؤونة من كل قطر، واقتضت سياسة الأمويين أن يعتقلوا فيه شباب الهاشميين فلا يتركونه إلا بإذن، وسلطوا عليهم الترف، وشغلوهم بالمال عن الملك، وخلوا بينهم وبين الفراغ، وقد ورثوا مع ذلك عن آبائهم المجاهدين مغانم الفتح من أموال ورقيق، وفى أهل الحجاز ملاحة ظرف ووداعة نفس ولطافة حس وفصاحة لسان ومحبة لهو، فتبسطوا على النعيم وعكفوا على اللذة، وقطعوا أيامهم بالمنادرة والمنادمة، وذهبوا فى حياة المجون كل مذهب؛ ووصل الحج بينهم وبين الحسان والقيان، واستهوت هذه الحال المغنين فوفدوا إلى مكة والمدينة من أقطار الدولة حتى اجتمع منهم فى وقت واحد كما يقول أبو الفرج: « ابن سُريج، والغَريض، ومعبد، وحنين، وابن محرز، وجميلة، وهَيْت، وطُوَيْس، والدلال، وبرد الفؤاد، ونومة الضحى، ورحمة، وهبة الله، ومالك، وابن عائشة، وابن طنبورة، وعزة الميلاء، وحَبَابة، وسَلاّمة، وبلبلة، ولذة العيش، وسعيدة، والزرقاء، وابن مِسْجح » وحتى غلب الغناء على أعمال الناس وميولهم؛ فقد حدث الامام مالك عن نفسه قال: « نشأت وأنا غلام أتتبع المغنين وآخذ عنهم، فقالت لى أمى: يا بُنىّ إن المغنّى إذا كان قبيح الوجه لا يُلتفت إلى غنائه، فدع الغناءَ واطلب الفقه فانه لا يضر معه قبح الوجه؛ فتركت المغنين واتبعت الفقهاء فبلغ الله بى عز وجل ما ترى ». من ذلك شاع الحب فى مدن الحجاز ورقّت عواطف بنيه، فسلكوا بالشعر مسالك الغزل الحضرى الرقيق الصادق، حتى كاد هذا الفن لافتنانهم فيه يبتدىء بهم وينتهى اليهم

وأما الشام فكان بنجوة من الثورات النفسية والأزمات السياسية لخضوعه لبنى أمية وإخلاصه لهم وانصرافه إلى تأييدهم، فلا هو مضطرم العواطف كالحجاز، ولا هو مضطرب الأهواء كالعراق، وقد أمن الخلفاء جانبه فتركوه لشأنه دون أن يثيروا عصبيته للخلاف، أو يهيجوا طاعيته لغنم، فبقى الشعر من جراء ذلك راكداً فى نفوس أهله لا يبعثه باعث، ولا يتوافر على دراسته وروايته باحث؛ وأكثر ما كان فيه من ذلك إنما كان يفد اليه من العراق والحجاز مع الشعراء الذين يجذبهم سخاء القصر أو دهاؤه، والأدباء الذين يطلبهم الخلفاء من البصرة كلما أعضلتهم مسألة فى اللغة والنحو والأدب

(يتبع) الزيات